«دجلة».. الوجه الآخر للماء

حسن إسميك
كاتب ومفكر عربي

تنتشر حول العالم اليوم أكثر من خمسة آلاف مدينة، علىٰ اختلاف مساحتها وموقعها الجغرافي، وحتىٰ علىٰ اختلاف جذورها الضاربة في عمق التاريخ. بيد أن قلّة قليلة من تلك المدن بقيت علىٰ قيد الحياة، وتمكنت – دون تكلّف – من أن تكون محطّ أنظار عبر الزمن، إذ بات اسمها يختصر بلداً كاملاً بكل ما فيه، ودليلاً دامغاً يشير إليه، ومن أهم الأمثلة علىٰ ذلك قولنا: (باريس) للدلالة علىٰ فرنسا، و(قرطبة) للإشارة إلىٰ الفترة الأندلسية، أما لفظ (بغداد)، فلا يزال تعبيراً كلياً عن العراق بكافة تفاصيله وجزئياته.

عرفت بغداد بتفاصيلها جميعاً.. الصغيرة والكبيرة، عرفت أحياءها وشوارعها وعادات أهلها وطقوسهم اليومية، يوم خالطتهم وشاركتهم العيش ومناسباته وأحواله، إذ لم أرض أن أكتفي من مكوثي في بغداد بالدراسة الجامعية والتخرج من الجامعة المستنصرية فحسب، بل أردت أيضاً أن أتعلم وأتخرج في كل ما يمكن أن أتعرف عليه وأختبره في هذه المدينة العظيمة. تمتاز بغداد بموقعها الجغرافي المهم والمُطلّ علىٰ نهر دجلة، الأمر الذي أدّى إلىٰ بثّ الروح فيها لتكون أرضاً خصبة للحياة بصنوفها كافة. ولِمَ لا! فما لَمَسَ الماء أرضاً، ولا جاور النهر شعباً، إلا وكانت الحضارة ثالثهما، لتصبح واقعاً ملموساً يتوّج بها هذا المكان، تلك هي الحقيقة الراسخة التي لا مناص منها في كل حديث يطرق أبواب المدن الخالدة.

وإذا فرغنا من الجغرافيا وتبعاتها، فكيف للتاريخ أن يفرغ من بصمة الأمجاد البغدادية التي تملّكت صفحاته! منذ التدوين المسماري الأول المنقوش علىٰ صخورها، مروراً باليوم الذي باتت فيه "بغداد" عاصمة، ليس للعراق فقط، بل للدنيا من حولها حين كانت مركز الخلافة الإسلامية، ليس سياسياً فحسب، بل ثقافياً وفكرياً أيضاً، ولعل مكتبة "بيت الحكمة" خير شاهد علىٰ المستوى الفكري والثقافي الذي وصلت إليه بغداد آنذاك، وبخاصة مع تطوّر الترجمة التي لعبت دوراً كبيراً في نشر أهم المعارف والعلوم الإنسانية، ما جعلها مقصداً عالمياً ومنبراً حضارياً لكافة المتعطشين للعلوم والثقافة، وكأن الله حرّم علىٰ "بغداد" عاقبة العطش أي كان، فمرة يرويها نهر دجلة، وأُخرىٰ يرويها نهر المعرفة.

لقد مارَسَ الزمن أفعاله القاسية التي تعاقبت علىٰ جسد العراق، ورغم ذلك، حاولت "بغداد"، بخطوات مرتبكة، الحفاظ علىٰ مذهبها الثقافي. ولرصد الحركة الثقافية الدائرة رحاها في مطلع القرن الماضي، لا يمكننا الأخذ بالتطورات العلمية الحاصلة في الجامعات والمدارس فحسب، بل لا بدّ لنا من اقتفاء أثرها في الحياة اليومية، وبمعنىٰ أدق، في الشوارع وبين العامة، وذلك لاستنباط المؤشرات والدلالات علىٰ حيوية المجتمعات الثقافية القادرة علىٰ إحياء الأفكار وتغذيتها بشكل مستمر. ولعلّ أهم الإنجازات في البيئة الشعبية كان ظهور بعض المقاهي ذات الطابع الفكري في أزقّة "بغداد" وشوارعها، أسوةً بالعواصم العربية والعالمية. حيث تعدّت كونها مكاناً لقضاء الوقت وتبادل الأحاديث، لتصل إلىٰ حدّ ممارستها كإحدى آليات التثقيف والتنوير، فصارت – تلك المقاهي – الفضاء الرحب الذي يجمع النخبة المثقفة والشرائح المتعلمة، يتبادلون في ما بينهم أحاديث الثقافة والأدب والسياسة والفلسفة.

وقد ذاع صيت تلك المقاهي في أغلب المدن العربية، وحتىٰ العالمية، بفضل ما يدور فيها من نقاشات وسجالات شعرية ومعارضات لحكوماتها السابقة. وقد شكّل تحول المقاهي العراقية في شارعي الرشيد والمتنبي بخاصة، إلىٰ منتديات ثقافية، عامل جذب لأهم الأدباء والكتّاب والمسرحيّين والرسّامين والسياسيين من أنحاء البلاد كافة، أمثال بدر شاكر السياب، محمد مهدي الجواهري، مظفر النواب، كمال الجبوري، البياتي، جواد سليم، وغيرهم من روّاد الفكر والأدب والإبداع والرأي.

> لا بدّ من نفض الغبار عن المعنى العميق لفكرة (القهوة / أو المقهى) ثقافياً ومجتمعياً، حتى تشكل عامل جذب للحركة الثقافية، وحتى «يتبغدد» المثقفون والمفكرون بوساطة تجديد المنابر التي تعبّر عن الشخصية العراقية في الوقت الحالي

ولازالت العديد من تلك المقاهي البغدادية حيّة في الذاكرة الجمعية للشعب العراقي، كمقهىٰ حسن عجمي، الشابندر، البلدية، البرازيلية، رضا علوان، وغيرها من المقاهي التي نضجت فيها أجمل التجارب الشعرية، واجتمعت حول طاولاتها الخشبية الجماعات التشكيلية الأولىٰ، وضمّت فوق رفوفها معرضاً واسعاً من الكتب المهمّة، واحتدمت داخلها أهم الجدالات الثقافية والفكرية، في محاولة لوضع بعض الأساسيات للتأثير علىٰ الحالة الاجتماعية والسياسية علىٰ حدّ سواء. والجدير بالذكر حول هذه التجربة في تلك الفترة، تواجد العنصر النسوي في هذه الأماكن، كالكاتبة "نازك الملائكة"، ما أشعل أولىٰ شرارات الحرية والانفتاح الحقيقي في المجتمع العراقي، لبناء الشخصية الملائمة للحداثة، لا كنصٍ فقط، بل كبيئة فاعلة في الحياة.

وعلىٰ وقع أقداح الشاي ورائحة القهوة الفواحة، كان الشاعر "محمد مهدي الجواهري" يلقي قصائده الوطنية في مقهىٰ "حسن عجمي"، مثيراً حماس الشعب العراقي ضد الإجراءات البريطانية التعسفية. كما سجّل مقهىٰ البلدية صدور ديوان الشاعر بدر شاكر السياب بعنوان "أزهار ذابلة" في وقت ارتياده المعتاد لهذا المقهىٰ. ويذكر التاريخ العراقي أن مقهىٰ "رضا علوان" كان من أهم المنتديات الثقافية التي عرض فيها أغلب المثقفين نشاطاتهم الإبداعية، إضافةً إلىٰ تحوّل مقهىٰ البرازيلية إلىٰ مدرسة مهمة تُعلّم الأدباء والشعراء الكثير من العلوم والمعارف عن طريق الحوارات التي تبنّتها النخبة. وعليه، شكّلت المقاهي مكاناً اجتماعياً حميمياً، يحوّل النظريات المحكية إلىٰ أفكار واقعية، ضمن السياق الجمعي لعلاقات الأفراد المتأثرة والمؤثرة في ما بينها.

لاحقاً، وفي النصف الثاني من القرن العشرين، تراجعت الحركة الثقافية بشكل ملحوظ، بعد أن باتت تلك المنابر المنتشرة شوكةً تنخز خاصرة الدولة وسياستها، إذ لا يعكر صفو بال المستبدين شيء أكثر من قصيدة ناقدة، أو فكرة ثورية تجمع أحلام المتطلعين للمستقبل الجديد تحت راية واحدة. ولذلك أغلقت الحكومة بعضاً من تلك المقاهي، وقامت بحملة اعتقالات واسعة شملت معظم مريديها، وذلك لطمس كافة المعالم الأدبية الفاعلة. فعادت المقاهي إلىٰ سابق عهدها، مكاناً يصدّر ثقافة اللهو واللامبالاة للشريحة الشبابية بعيداً عن هموم الحياة اليومية.

في الحقيقة، قامت بعض نخب المجتمع العراقي ببعض المحاولات الخجولة لإعادة إحياء الأمجاد القديمة للمقهىٰ البغدادي، وفي سبيل ذلك، تحوّلت بعض مناطق بغداد إلىٰ مراكز سياسية وثقافية لاستقطاب المهتمين والمشتغلين بكل ما هو جديد ومعرفي، كمقهىٰ "الكرادة"، وتم افتتاح بعض المكتبات الصغيرة التي تؤمّن قراءة وبيع الكتب بأسعار رمزية. بيد أن الإهمال كان من نصيب أغلب المقاهي التراثية التي اقتصرت وظيفتها علىٰ استقطاب السيّاح والجيل الجديد من الشباب، بفضل ديكوراتها التقليدية، والصور الفوتوغرافية القديمة التي تروي عبرها قصة حياة مختلفة كانت متواجدة في هذا المكان يوماً ما، وبخاصة بعد الثورة الحاصلة في وسائل الإعلام والإنترنت، فما عاد للمقاهي أيّ دور يُذكر في المشهد الثقافي والاجتماعي.

إذن، تعكس المقاهي الشعبية صورةً حقيقية نقلت الواقع الذي عاشته الشعوب العربية ضمن ظروف تلك الحقبة، أما ما يحدث اليوم في المقاهي الثقافية في مدينة "بغداد" فلا يتّفق مع الصورة القيّمة للحركة الثقافية العراقية عبر تاريخها الطويل. لذا، لا بدّ من نفض الغبار عن المعنىٰ العميق لفكرة (القهوة/ أو المقهىٰ) ثقافياً ومجتمعياً، حتىٰ تشكل عامل جذب للحركة الثقافية، وحتىٰ "يتبغدد" المثقفون والمفكرون بوساطة تجديد المنابر التي تعبّر عن الشخصية العراقية في الوقت الحالي.

مقاهي بغداد أرخت للسياسي والثقافي

أنت لا تنهي الحرب بسحب قواتك

لا أحد يعرف بالضبط تفاصيل الانسحاب الأميركي من أفغانستان

مواصلة القتال من «فوق الأفق» رد إدارة بايدن على المخاوف الأمنية للأفغان

رغم تعهد الولايات المتحدة بسحب قواتها من أفغانستان بعد تدخل عسكري استمر 20 عاما في هذا البلد الذي لا يزال وضعه الأمني هشا، فإن تفاصيل هذا الانسحاب والمرحلة التي ستعقبه مازالتا غير واضحتي المعالم. وفيما تنتاب الأفغان حالة قلق بسبب الشكوك في توقف الدعم المالي والأمني لحكومتهم ما يسمح لطالبان بالسيطرة علىٰ البلاد تؤكد إدارة الرئيس جو بايدن أن حربها ضد الإرهاب ستكون من «فوق الأفق» أي باستخدام الطائرات المسيرة والتكنولوجيا العسكرية.

واشنطن - أنجز الانسحاب الأميركي من أفغانستان، المقرر استكماله بحلول سبتمبر، بنسبة تتراوح بين 16 و25 في المئة وفقًا لتقدير أسبوعي للبنتاغون نشر الثلاثاء، ما يظهر استمرار عمليات الانسحاب بوتيرة ثابتة.

ومنذ أن أصدر الرئيس جو بايدن أوامر بمغادرة القوات في أبريل، سحب الأميركيون من البلاد ما يعادل 160 طائرة شحن من طراز سي–17– محملة بالعتاد، وفقًا للقيادة المركزية للجيش الأميركي. كما قاموا بتسليم أكثر من 10 آلاف قطعة من المعدات إلىٰ وكالة تابعة للبنتاغون لتدميرها.

وفيما يرفض الجيش الأميركي أن يكون أكثر دقة بشأن وتيرة الانسحاب وموعده النهائي "حفاظا علىٰ أمن العمليات" مازالت تفاصيل الانسحاب وتصورات الإدارة في المرحلة التي ستليه غامضة حسب المتابعين.

وعندما أراد بايدن وقف أطول حرب في تاريخ الولايات المتحدة اكتفىٰ بقوله إن أسباب بقاء الجنود بعد 10 سنوات من وفاة زعيم القاعدة أسامة بن لادن أصبحت "غير واضحة بشكل متزايد". وبعد أن أصبح الرحيل واردا تحولت الأسئلة إلىٰ خطة بايدن لما بعد الانسحاب.

وفي ظل ضبابية مرحلة ما بعد الانسحاب، يتساءل روبرت برنز في تقرير لوكالة أسوشيتد برس عن النهج الذي ستتوخاه إدارة بايدن في هذه المرحلة، وهو سؤال لم تقع الإجابة عنه بعد.

فماذا ستفعل الولايات المتحدة إذا استغلت طالبان فرصة رحيل الجيش الأميركي واستولت علىٰ السلطة؟ وهل يمكن لها وللمجتمع الدولي منع تفاقم حالة عدم الاستقرار في أفغانستان من خلال الدبلوماسية والمساعدات المالية وحدها بعد أن بقيت القوات الأميركية وقوات التحالف هناك لمدة عقدين من الزمن؟

ماذا بعد مغادرة القوات

تتراوح التوقعات من توقع مرحلة كارثية إلىٰ مجرد فترة صعبة. ولا يستبعد مسؤولون اندلاع حرب أهلية تخلق أزمة إنسانية في أفغانستان يمكن أن تمتد إلىٰ دول أخرى في آسيا الوسطىٰ، بما في ذلك باكستان المسلحة نوويا. ويكمن السيناريو الأكثر تفاؤلا في أن يتحقق السلام بين حكومة كابول ومتمردي طالبان.

وفي جلسة استماع بمجلس الشيوخ يوم الخميس سُئل المسؤول عن ملف آسيا في البنتاغون ديفيد هيلفي عن سبب بقائه متفائلا بينما قُتل مئات الأفغان في الأسابيع القليلة الأولىٰ من الانسحاب الأميركي. وأجاب هيلفي "لن أقول إنني متفائل"، مضيفا أن اتفاق السلام لا يزال ممكنا.

ديفيد هيلفي

لست متفائلا، لكن اتفاق السلام مع طالبان لا يزال ممكنا

وتقول الإدارة الأميركية إنها ستحث الكونغرس علىٰ مواصلة السماح بمليارات الدولارات من المساعدات للجيش والشرطة الأفغانييْن، وتقول وزارة الدفاع الأميركية إنها تعمل علىٰ إيجاد طرق لتقديم الدعم والمشورة لصيانة الطائرات من بعيد. وقد أنجز عدد من المتعاقدين الأميركيين، الذين غادروا مع القوات، الكثير من هذا العمل. وقد يعرض الجيش الأميركي إرسال بعض قوات الأمن الأفغانية إلىٰ دولة ثالثة للتدريب أيضا.

لكن لا شيء من هذا التدريب أو المشورة أو الدعم المالي مضمونا، كما أنه من غير الواضح ما إذا كانت الولايات المتحدة ستوفر قوة جوية لدعم القوات البرية الأفغانية من قواعد خارج البلاد.

وتعتبر القوات الجوية الأفغانية مركزية في الصراع ، لكنها لا تزال تعتمد علىٰ التكنولوجيا الأميركية. وللأفغان، علىٰ سبيل المثال، طائرات دون طيار ولكن ليس من النوع المسلح، مما يجعلها أقل فاعلية في المعركة.

ويأتي الانسحاب الأميركي في الوقت الذي تتزايد فيه المخاوف من عودة حركة طالبان بقوة أمام توقعات بإبرامها تحالفا مع تنظيم القاعدة.

وكانت طالبان تعهدت في اتفاق فبراير سنة 2020 بالتنصل من تنظيم القاعدة، لكن هذا الوعد لم يُمتحن بعد. وهذا مهم في ضوء استعداد طالبان لتوفير ملاذ لبن لادن وزملائه في القاعدة خلال سنوات حكمها في التسعينات.

ويشير جوزيف جيه كولينز، وهو كولونيل متقاعد بالجيش درس الحرب الأميركية في أفغانستان منذ بدايتها، إلىٰ أنه منذ عامين كان البنتاغون يحذر الكونغرس من وجود روابط دائمة بين القاعدة وطالبان. وفي تقرير صدر في يونيو 2019 أوضح البنتاغون أن القاعدة وفرعها في باكستان، قاعدة الجهاد في شبه القارة الهندية، يدعمان مقاتلي طالبان وقادتها ويدربانهم ويعملان معهم بشكل روتيني.

وفيما يشير البنتاغون إلىٰ أن جميع قوات العمليات الخاصة الأميركية ستغادر في موعد أقصاه 11 سبتمبر، إلا أنه من شأن ذلك أن يصعّب عمليات مكافحة الإرهاب في أفغانستان بما في ذلك جمع المعلومات الاستخباراتية عن القاعدة والجماعات المتطرفة الأخرى، ولكن مع ذلك لن تكون مستحيلة.

ويكمن رد الإدارة علىٰ هذه المشكلة في مواصلة القتال من "فوق الأفق". وهذا مفهوم مألوف لدى الجيش الذي اتسع نطاقه الجغرافي مع ظهور الطائرات المسلحة دون طيار وغيرها من التقنيات.

لكن هل ستنجح هذه الطريقة؟ هنا يرد متابعون بالقول إن الإدارة الأميركية لم تعقد بعد أي اتفاقيات تأسيس أو وصول مع الدول المجاورة لأفغانستان، مثل أوزبكستان. لذلك قد يتعين عليها الاعتماد علىٰ القوات المتمركزة في الخليج العربي وحوله، في البداية علىٰ الأقل، مما يعني أن نتائج الحرب علىٰ الإرهاب ستكون طويلة المدى.

مهمة دبلوماسية صعبة

تؤكد الإدارة الأميركية أنها ستحتفظ بوجود السفارة الأميركية، لكن ذلك سيصبح أكثر صعوبة إذا أدى رحيل الجيش إلىٰ انهيار الحكومة لصالح طالبان.

وصرح الجنرال مارك ميلي، رئيس هيئة الأركان المشتركة، للصحافيين الأسبوع الماضي بأن تأمين الوصول إلىٰ مطار كابول الدولي سيكون مفتاحا لتمكين الولايات المتحدة والدول الأخرى من الاحتفاظ بسفارات. وكشف أن الولايات المتحدة وحلفاء الناتو يفكرون في بذل جهد دولي لتأمين ذلك المطار.

وعلىٰ غرار المأزق السياسي تكمن المشكلة أيضا في مصير المدنيين الأفغان الذين قد تستهدفهم طالبان بداعي مساعدة المجهود الحربي الأميركي.

صحيح أنه بإمكان المترجمين وغيرهم ممن عملوا في حكومة الولايات المتحدة أو الناتو الحصول علىٰ ما يعرف بتأشيرة الهجرة الخاصة، أو "إس آي في"، لكن عملية التقديم قد تستغرق سنوات.